صحافيو العالم المغاربة

طوينا »ذاكرة الصحافة المغربية» التي ستصدر في كتاب، لنحلق بعيدا في رحاب نفس القطاع، ولكن مع الاختلاف في كون السفر الأول كان في الزمان، رجوعا إلى ماضي المؤسسين، وهذا السفر الثاني هو سفر في المكان بحثا عن بروفايلات ومسارات الصحافيين المغاربة العاملين بالخارج. هم كثر يعدون بالمئات، متألقون، حيث يشتغلون في القارات الأربع وفي أكبر المؤسسات الإعلامية عبر العالم، منهم المدير والمسؤول ورئيس التحرير وكبير المراسلين، ومنهم المحرر والمراسل الحربي والمحلل، لهم حكايات وقصص ومغامرات تستحق أن تروى لتكون شاهدا على أن السؤال الذي نطرحه هنا يبقى مشروعاً: لماذا توجد أنفس الكفاءات الصحافية في الخارج والإعلام هنا في الوطن يئن؟ الجواب في ثنايا هذه الشهادات لكتاب التاريخ اليومي بأقلام سفراء المملكة الشريفة.

عبد الصمد بنجودة يقول إن الرأسمال المتوحش شوّه الإعلام المغربي

تعلّمت في «البي.بي.سي» أن الدقة للمؤسسة الإعلامية كالفضيلة للمرأة

بلغة المتمكن يتحدث عبد الصمد بنجودة عن مساره التصاعدي من بلدته الصغيرة بآسفي إلى عاصمة الضباب. عموما عبد الصمد دليل آخر على الكفاءة المغربية في الإعلام والتي تفند أن الرداءة الإعلامية الوطنية قدر مرتبط بالذات. سينقلنا عبد الصمد من دراسته إلى عمله بالمغرب ثم كيفية العمل في إحدى أعرق القلاع الإعلامية في العالم الـ "بي. بي. سي".

» حاورته: **نجاة أبو الحبيب**
n.aboualhabib@gmail.com

عبد الصمد بنجودة

← كيف تستعيد علاقتك الأولى مع الصحافة قبل ممارستها؟

■ دخلت الصحافة من باب الأدب، وأنا مدين لمركز ثقافي ببلدتنا الصغيرة (وتدعى جزولة) في ضواحي آسفي اشتمل على أمهات الكتب التي رافقت معظم صباي.

كنت أهجر المقررات الدراسية لأعكف على فك طلاسم معلقات امرئ القيس والتأمل في ما قاله المعري وتخيل الأحداث التي حكى عنها الطبري في تاريخه وابن كثير وابن الأثير والاستقصا للناصري .. وغيرهم.

وغالبا ما كان يلومني المحيطون بي على تفريطي في دروس الرياضيات والعلوم وغيرها لصالح كتب كهذه.

وفي البدء كان الولع بأشعار أبي الطيب المتنبي وروائع الشعر الجاهلي، ليتطور الولع الى مسرحيات شكسبير وبرنارد شو في ما بعد.

كما كنت في مرحلة الدراسة الإعدادية حريصا على جمع الأعداد القديمة من مجلة «العربي» الكويتية «وعالم المعرفة» في عصرها الذهبي.

وعزز كل هذا إدماني على الاستماع للإذاعات الناطقة بالعربية، إذ كنت من شدة الهوس أحفظ ترددتها الهرتزية وأسماء برامجها ونبرات أصوات مذيعيها، ولا سيما القسم العربي لهيئة الإذاعة البريطانية منذ الصغر ثم القسم الإنجليزي منذ مرحلة الدراسة الثانوية.

ساعدني في كل هذا تشجيع الوالدين الكريمين وصغر البلدة التي رأيت النور فيها، فلم تكن هناك مرافق للترفيه ولا لقضاء وقت الفراغ ولم يكن أمامي من خيار إلا القراءة لتبديد زنابق الوقت الذي كان يبدو كأنه توقف هناك.

أما في ما يخص الكتابة ففي الواقع بدأت تجربتي معها وأنا على مقاعد الدراسة من خلال يوميات مازلت أحتفظ ببعضها ليومنا هذا .. ومن منا لم يخرج عن النص في حصة الإنشاء أو كتب مقالا في مجلة المدرسة، أو ألقى خطبة (ظنها عصماء) في احتفالات أعياد العرش.

← هل كنت تحلم بمزاولة هذه المهنة؟

■ بالتأكيد ككل الشباب المغربي البسيط كنا نحلم بنسف الجبال، ولكن مع مضي الوقت هذه الخيالات قدمت تنازلات مؤلمة لصالح الواقع.

الظروف التي يعيش فيها الإنسان قد تساعده أو تحطمه في هذه الحياة.

مسكين «بوشتى» في واد زم و«موحا» في أزيلال و«ميلودة» في تاونات .. إلخ لو وجدوا ظروفا بعيدا عن الجبل ورعي الغنم وجلب الماء من البئر لأعطوا ما لديهم.

بالنسبة لي مرت «تغريبة العبدي» من عمق المغرب «غير النافع» إلى عاصمة الضباب عبر مدينة العرفان بالرباط، حيث درست الصحافة في المعهد العالي للإعلام والاتصال وقبلها درست الأدب الإنجليزي بجامعة شعيب الدكالي بالجديدة .

هناك من الإعلاميين من يقول عن نفسه إنه ولد إعلاميا، لكنني في الحقيقة لم أفكر في هذا إلا مع اقتراب سنوات الثانوية من نهايتها، فقد كان مناي الأول والأخير أن أكون مؤرخا أو أديبا أو لا أكون، غير أني الآن أومن أن ارتباطي بالإعلام قد يكون أشبه بالزواج الأرثودوكسي كما تراه الكنيسة الشرقية.

ومن يدري فربما حتى إن ابتعدت عنه مستقبلا قد يكون ذلك لإكمال دراساتي العليا فيه لو تمكنت من ذلك.

فمهنة الإعلام علمتني الكثير ومازلت أتعلم فيها، وعلى علاتها تبقى لديها لذة خاصة رغم كثرة المتطفلين عليها حتى يخيل لبعض ممن حملوا بأياديهم قلما وكتبوا : «لا شك أنه ..» أنهم فعلا إعلاميون حقيقيون .. ولكن «ما كل سوداء فحمة، وما كل حمراء لحمة » كما سرى بذلك المثل أو كما قال الشاعر:

ما كل من هز الحسام بضارب
ولا كل من أجرى اليراع بكاتب

← كيف دخلت لأول مرة بلاط صاحبة الجلالة؟ وهل كانت إذاعة البحر الأبيض المتوسط هي محطتك الفعلية الأولى في عالم الصحافة؟

■ في حقيقة الأمر .. تجربتي مع الصحافة انطلقت في البداية بكتابة مقالات حول مواضيع شرق – أوسطية لصالح مراكز أبحاث أجنبية منها ما كان عن دمقرطة الشرق الأوسط أو حوار الشرق والغرب.

ولكن مباشرة بعد التخرج من معهد الصحافة شددت الرحال لمؤسسة «ميدي 1» بطنجة، حيث دامت تجربتي فيها شهورا فقط.

← كيف عشت هذه التجربة التي لم تدم سوى شهور معدودة؟

■ لعلي لست مخطئا في القول إن «ميدي 1» رغم بعض الملاحظات تظل مدرسة محترمة في الإعلام المغربي، وقد تعلمت فيها الكثير على الرغم من قصر مدة اشتغالي بها.

ففيها تدربت (ما أمكنني) على آليات التمكن من أبجديات الحوار والمجادلة وفن المختصر المفيد في صياغة الخبر، وطريقة الإلقاء التي تشبه الحكي دون تكلف.

والحق يقال إن لميدي 1 مذاقا نوعيا ووضعا خاصا يجعلها لحد الآن (على الأقل في نظري) عصية على المقارنة مع باقي الإذاعات المغربية الخاصة، فهي تمتلك هوية تحريرية واضحة عكس البقية.. إذ تحس وأنت تستمع لها أنك تستهلك منتجا جيدا مر بمراقبة طبية ولا آثار جانبية له على صحتك .. مضامينها بعيدة عن الإسفاف وتحترم ذكاء المتلقي ولا تهين إدراكه وعقله.

وأعتقد أن اللغة كانت عاملا حاسما في نجاحها تماما كما أن الصحفي الناجح هو ذاك الذي يستطيع مع مرور الوقت أن يصنع لغته الواصفة métalangage إذ ذاك يصبح محترفا.

← قبل الرحيل خارج الوطن، مررت من إذاعة «أطلانتيك» لفترة امتدت سنتين تقريبا، ما هي أهم الأشياء التي حملتها من هذه التجربة وأنت في بداية مشوارك؟

■ في الواقع .. تزامن تخرج دفعتنا مع أول سنة من تحرير الإعلام السمعي بالمغرب، فبرزت العديد من المحطات الإذاعية، وشاءت الأقدار وأنا القادم من

عبد الصمد بنجودة في مدينة بنغازي

إقليم البحر والأسماك (آسفي) أن تكون مسيرتي المهنية القصيرة بالمغرب بين البحار: تارة في إذاعة البحر الأبيض المتوسط Medi 1 وتارة في إذاعة الأطلسي Atlantic

خلال هذه المرحلة كان لي برنامج يعنى بأحداث المنطقة المغاربية هناك، ومازال لي حنين جارف لتلك المرحلة المرتبطة لدي بالاشتغال في الفجر المبكر للغاية، إذ الجرائد وفنجان القهوة ومشهد انبلاج الصباح من نافذة العمل كلها مشاهد طبعت ذاكرتي بعنف.

وخلال هذه التجربة أيضا بمجموعة «إيكوميديا» مازلت أتذكر أول رحلة لي للولايات المتحدة في إطار برنامج إعلامي رعته السفارة الأمريكية بالمغرب وزرت خلاله نيويورك وواشنطن ولوس أنجلس للحديث عن الأزمة المالية العالمية بعد وقت قليل من اندلاعها.

كيف قررت المغادرة للعمل خارج الوطن؟

■ ما أصدق من قال:

لعمرك ما ضاقت أرض بأهلها
ولكن أحلام الرجال تضيق

عندما كنا نعيش ببلداننا كان الفضاء محدود المعالم وكان أفقنا ضيقا، ولكن عندما يطأ المرء أرض لندن أو واشنطن يحس بالمرارة تعتصر قلبه من هول الفارق، وبالنسبة لي فقد سكنني هاجس تنفس هواء نقي في أفق مغاير منذ أيام الدراسة الجامعية، وقد كانت هجرتي اختيارا بطعم الاضطرار وعن سابق تصور وتصميم، وأعتقد أنه لو خير الإعلاميون المغاربة داخل الوطن بين الهجرة أو البقاء فإن نسبة كبيرة منهم ستختار الفرار.

أحيانا في الإعلام المغربي يحس الصحفي أنه لا فرق بينه وبين صانع الزجاج، فكلاهما يُطلب منه على سبيل المثال قياس «عشرون سنتيما وثلاث مليمترات» ووجب عليهما الالتزام بالقياس وكفى .. لا حاجة لاجتهاد ولا هم يحزنون .. مع اختلاف غير بسيط هو أن صانع الزجاج لديه هامش إبداع أكبر وإذا لم يلتزم بالقياس فسلعته ستظل عنده عكس السيناريوهات المتنوعة التي تنتظر الصحفي.

الرأسمال «المتوحش» شوه صورة الإعلام المغربي بكل صراحة وعبث بالكفاءات الوطنية، وغدت شروط الاجتهاد لدى الصحفي المغربي ببعض «الأفران» الإعلامية أكثر تعقيدا وتعجيزا من شروط الاجتهاد في المذهب الحنفي، وفي الوقت الذي يصنع فيه بعض الصحفيين العالميين الخبر نجد إذاعات خاصة يتيه صحفيوها في مرحلة كيفية قراءة الخبر.

أصبحت واحدا من أهم صحافيي «البي بي سي» المغاربة، كيف تتذكر الخطوة الأولى داخل هذه التجربة الجديدة في فضاء آخر وبلد مختلف؟

■ الحياة في الغرب تفتح أمام الإنسان اختيارات كثيرة وصعبة، وقد علمتني (على الأقل لحد الآن) ألا آخذ الأمور بمنطق الأبيض الناصع أو الأسود الحالك وأن اللون الرمادي له حصة الأسد في هذه الحياة.

عبد الصمد بنجودة في مبنى البث التابع لـ «البي بي سي»

في البداية كاد القدر يقودني نحو طهران بعد أن تلقيت عرضا من قناة «العالم» وكاد يقودني نحو بكين بعد عرض من CCTV «العربية»، ولكن حططت الرحال بلندن التي لم أحبها في البداية كثيرا بسبب غياب شمسها، غير أني اعتدت على الأمر مع مرور الوقت.

كثيرا ما كنت أقرأ للكاتب والترسكوت وأتخيل فضاءات رواياته بلغته الوصفية لأدرك في ما بعد أن العيش ببريطانيا يجعل المرء يفهم الرؤى السردية لدى أمثال هؤلاء الكتاب، وكيف أن البيئة والمكان يلعبان دورا مهما في تصور الأنماط الأدبية.

صباحات لندن المظلمة جعلتني في البداية ميالا للعزلة بشكل عارم حتى كدت أصاب بمتلازمة ديوجين .. الآن .. وجب علي الإقرار أن المهجر صاحب فضل علي، إذ علمني ثقافة قبول الآخر المختلف بل والتعلم منه.

أما بالنسبة لعملي بـ «البي بي سي» فقد كان سلسا منذ البداية ولم تواجهني (حتى الآن) أي صعوبة تذكر رغم تنوع الجنسيات العربية بها، ورغم أني كنت دائما أسمع عن «دسائس» قاعات التحرير.

وبصرف النظر عن كل المؤاخذات تظل «البي بي سي» اسما محترما في نهج سيرة أي صحفي، وربما لا داعي للتذكير بأنه من رحمها ولد أبرز كوادر الإعلام في الخمسين عاما الماضية، مما جعلها من أهم المراجع المهنية للإعلام العربي.

فهذه المؤسسة بتاريخها الإذاعي الطويل الذي يمتد لثمانية عقود أسست لقيم تحريرية ومعايير من العمل الصحافي على مستوى عال ومحترم يجعلنا فعلا نؤمن أن الدقة للمؤسسة الإعلامية كالفضيلة للمرأة.

ومن نافلة القول إن الفضل في كل هذا يرجع لكونها تتلقى تمويلا من دافعي الضرائب البريطانيين في إطار «الخدمة العامة» تماما كما هو الحال بالنسبة للمستشفيات والمدارس .. إلخ بدل تمويل الإعلانات ورجال الأعمال.

المهم، بعد مرور بضعة شهور على التحاقي بـ«البي بي سي» بدأت قراءة نشرة الأخبار على موجات الإذاعة وعلى دقات بيغ بن الشهيرة التي ظلت تتردد عبر الأثير لعقود وعقود..

وكنت من قبل مترجما للنشرات، ثم مررت لتقديم للجولات الإخبارية الرئيسية بالإذاعة كالعالم هذا الصباح وعالم الظهيرة وحصاد اليوم الاخباري، وذلك قبل الانتقال لبرنامج «بي بي سي إكسترا» لتقديمه أولا ثم العمل بالموازاة كرئيس فريق به. Senior Broadcast Journalist

تقدم برنامجا ناجحا، كيف تقربنا من أجواء اشتغالك؟

■ «بي بي سي إكسترا» يتحاشى التناول السياسي للمواضيع، وهو برنامج يزاوج الخبر بالتحليل والثقافة الرفيعة بالتسلية غير المبتذلة.. وقد مرت تسع سنوات على إطلاقه وتعاقبت على تقديمه أسماء معروفة في الإعلام العربي.

يبدأ يوم عملي بمطالعة أبرز الصحف البريطانية مثل: «الغارديان» و«التايمز» و«الإندبندنت» و«الدايلي تلغراف» وغيرها .. ومطالعة أجندة التوقعات التي يشرف عليها قسم التخطيط بـ«البي بي سي» ثم الاجتماع بفريق العمل لإعداد قائمة المواضيع ثم الضيوف.

ويشتغل فريق عمل البرنامج المكون عادة من حوالي عشرة صحفيين بالإضافة لمساعدين دائما على استضافة شخصيات من خلفيات ثقافية مختلفة.

وهنا لا بد أن أشير إلى أن تناول القضايا التي يدور الحوار حولها مع ضيوف البرنامج يجب أن يكون من عدة زوايا لم يتم تناولها من قبل.

وستكون هناك نسخة تلفزيونية تبث أسبوعيا في غضون الأشهر الثلاثة المقبلة.

الجانب الوثائقي حاضر بقوة في مسارك المهني، هل هذا بفعل ميول خاص أم تحت إلحاح الضرورة؟

■ يقال: «إذا كانت الحياة تمنى دائما بالهزيمة أمام الموت فإن الذاكرة تنتصر في نزالها أمام العدم»، والتوثيق له ميزة حفظ الذاكرة، لذا في خضم الاضطرابات التي شهدتها البلدان العربية منذ 2011 خصصت «البي بي سي» جزءا مهما من ميزانيتها لبعض الوثائقيات حول هذا الموضوع، وقد سنحت لي الفرصة آنذاك للاشتغال على وثائقي إذاعي في قسم البرامج بـ Radio 4 الذي يعد محطة النخبة البريطانية، وهو مخصص بالأساس لمواضيع الفن والتاريخ ونقاش الأديان والماورائيات، وأيضا للدراما الراقية، والكوميديا العالية.

الوثائقي كان عن وسائل التواصل الاجتماعي واستعمالها في زمن الاضطرابات (سوريا نموذجا).

أيضا من بين الوثائقيات التي أتذكرها «عبيد لندن»، وهو عن أوضاع الخادمات في المنازل الخليجية بلندن، وآخر بعنوان «الحب المحرم في مصر»، وهو عن مشاكل الزواج المختلط بين الأقباط والمسلمين هناك.

كما أتذكر إسهامي في وثائقي The Fifth Floor في القسم الإنجليزي وهو عن تراجيديا اللاجئين السوريين وشتاتهم في دول الجوار.

يبدو أن مجال الأدب أيضا يستهويك، فأنت كذلك شاعر، ومن الأعمال التي قمت بترجمتها ديوان أبو القاسم الشابي «أغاني الحياة» ، لماذا اخترت هذا الديوان الشعري؟

■ لا أستطيع أن أدعي أنني شاعر، بل يمكن أن أعرف نفسي بالشاعر الفاشل ونحن نسمع أن الشعراء الفاشلين قد يكونون مبدئيا صحفيين جيدين.

في البدء كانت قصائدي التي أحرقتُ معظمها .. كتبتها لأني ظننت أنه عن طريقها يمكن أن أصبح متنبيا آخر .. كنت أريد أن أصبح شاعرا وكفى، لكن مع ذلك أخفقت، وبعد سنوات اكتشفت أن الشعر لم يخلق لي، ولا أنا له!!

ومازلت أحتفظ بديوان مخطوط لي من أيام الجامعة أستحي أن أريه لأحد.

أما بخصوص ترجمة ديوان الشابي فهي تعود لسنوات خلت وبالضبط لفترة جامعة شعيب الدكالي، والشابي من بين الشعراء الذين أثارتني تجربتهم لأنه مات ولم يتجاوز السادسة والعشرين، وأراه شاعرا بألف متشاعر ممن نجبر على القراءة لهم، بل وأظن أنه ربما لو أتيحت له فرصة عيش أطول لاستنفد كل القدرات التعبيرية للغتنا حتى آخر نفس.

كما ترجمت أيضا رواية Mischief in Fez للكاتبة Eleanor Hoffmann

حاورت العديد من الشخصيات التي تنتمي لمختلف المجالات، من هي الشخصية التي خلفت داخلك أثرا كبيرا؟

■ ربما أميل لحواري المطول قبل شهور مع العالم الأمريكي ذي الأصل المصري فاروق الباز .. فمن خلال الحديث معه تستشف كيف أن أوطاننا تكفر بأحلام أبنائها وتطردهم بالمجان ليتيهوا في دهاليز الغرب ويتلقفهم الآخرون ويصنعوا منهم شيئا، وكيف أن «الناس في بلادنا جارحون كالصقور» على حد تعبير صلاح عبد الصبور.

ولكن رغم ذلك هناك فعلا من لا تسكنه عقدة «الخواجه» ولا يتنكر لمسقط رأسه رغم أنه يتأرجح بين لغتين وعالمين وأسلوبين في الحياة، وفي الرؤى، بل وفي الأشياء عموما.

وذلك على عكس بعض «مثقفينا» المرضى بالاستلاب (aliénation) والذين يشبهون شخصية الطبيب إسماعيل في رواية «قنديل أم هاشم» عندما درس واشتغل في ألمانيا ليعود ويكفر وسطه الغارق في الجهل والخرافة.